الرمز في الشعر العربي الحديث

محمود درويش أنموذجاً

دراسة نقدية

د. حسن بن عبده بن علي صميلي

الأستاذ المساعد في الأدب والنقد – قسم اللغة العربية – بجامعة جازان

المقدمة

الحمد الله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبي الأمين محمد صلى الله عليه وسلم وبعد :

يكثر في الشعر العربي استخدام الرمز ، ولا يغيب ديوان شعري عن العلامات والرموز بأنواعها المختلفة ؛ لكنَّ وصف الرمز والتركيز عليه وتحديده لم يظهر إلا في العصر الحديث ؛ حتى أصبح ظاهرةً ومذهبًا فنيا وجماليًّا ؛ مما شجعَّ الشعراء المحدثين على استعمال الرمز بشكلٍ كثيف وواسع فكان من روَّاد الرمزية في الشعر العربي الحديث السيَّاب والبياتي وصلاح عبدالصبور ومحمود درويش ومحمد الثبيتي وغيرهم..

وقد امتلأ الأدب العربي الحديث بشعراء كُثُر يتخذون من الرمزية منهجًا وطريقة واضحة في شعرهم كمحمود درويش الذي يعدُّ الرمز عنده قيمةً رئيسة على مستوى المفردات والجمل ، أو على مستويات النص كاملًا ؛ فكان لشعر درويش تميُّزٌ خاصٌّ ولذةٌ مختلفة ؛ فاخترتُ أن يكون بحثي بعنوان : (الرمز في الشعر العربي الحديث / محمود درويش أنموذجًا).

وتبرز قيمة هذا الموضوع و أهميته في أنَّ محمود درويش أحدُ روَّاد الشعر الحديث ، و أحدُ ممثليّ الرمزية في قصائدهم ؛ فأثرى التجربة الشعرية كثيرًا من خلال ارتباطه بالتجديد والحداثة.

وقد درستُ في هذا البحث الرمز في الشعر العربي الحديث من خلال استخدام المنهج النقدي التأويلي؛ بصفته ركناً مهما في تشكيل بنية النص الشعري لغةً ومنهجًا ، ويتكون ا لبحث من مقدمة وخاتمة يتوسطهما ثلاثة مباحث ، ومطالب تتعلق بكل مبحث ،وثبت بالمصادر والمراجع.

تمهيد :

يعدُّ الرمز غنيًّا ومثيرًا، وهذا ما جعله امتدادًا لفروع معرفية شتى ؛فهو موجودٌ في علم الديانات وعلم النفس والاجتماع وفي علم اللغةً[١] .

ويشُتَرطُ في الرمز الأدبي أو الشعري أن يتميز ويختلف عن غيره من الرموز الأخرى ؛ فعندما نقارن بين الرمزيْن الديني الصوفي والأدبي نكتشف أنَّ الشاعر الحديث في استخدامه للرمز لا يفكِّر بالعقلية الدينية[٢]؛ فالرمز الشعري ينبع من موضوع بعينه ومرتبط به.

ويتخذ الرمز اللغوي مدلولاتٍ محددةً خلافاً للرموز الأدبية؛ ففي الرمز اللغوي يشير الدالُّ إلى مدلوله مباشرةً[٣]

وتمثل في الرمز الأدبي استخدامات كثيرة على غرار : (النجم ، البحر ، الريح ، القمر ، إلخ ..) ؛ لتُعبِّر كلُّ كلمة عن دلالات رمزية بعيدة ، وبالرغم أنها دلالات يشترك فيها كلُّ الشعراء ؛ إلا أن استخداماتها الخاصة تخرجُ بها لأبعاد قديمة تضفي عليها أبعادًا جديدة ومتطورة ؛ فالرمز الشعري ملتئمٌ بالتجربة الشعورية ، والشاعر يستطيع استعمال شتى المواقف والموضوعات والحوادث استعمالاً رمزيًّا[٤].

والرمز الأدبي يتميَّز عن غيره من الرموز باكتشافه التشابهات الجوهريةَّ بين الأشياء اكتشافاً ذاتياً مفتوحًا غير مقيدَّ[٥].

إنَّ الاختلافات بين الرمز الأدبي أو الشعري وغيره من الرموز والمرجعيات المعرفية الأخرى تجعلنا نعتمد في فهمنا على المتلقي وثقافته في تلقي المعارف التي يستخدمها الشعراء ؛ فالرمز دليل على ثقافة الشاعر وعلى قدراته الفنية والتعبيرية.

---

[١] انظر: نسيب النشاوي ، مدخل الى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ، د.ط ، دمشق ، ١٩٨٠م ، ص٤٦٩

[٢] انظر: عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر (قضاياه ، وظواهره الفنية والمعنوية) ، ط٣ ، بيروت ، دار العودة ودار الثقافة، ١٩٧٥م ، ص١٩٧

[٣] انظر: المرجع نفسه ، ص ١٩٨

[٤] انظر: المرجع نفسه ، ص ١٩٩

[٥] انظر: محمد فتوح أحمد ، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، ط٣ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٤م ، ص٣٧

المبحث الأول : مفهوم الرمز لغةً واصطلاحًا

يعدُّ الرمز مفهومًا مرتبكاً، و يسُتعمل في مفاهيم ورؤى مختلفة ، ورغم قِدَمِه إلا أنَّ تشكُّله الحقيقي والمذهبي والفني لم يكن إلا في العصر الحديث ؛ فالأدب القديم لم يستعرض الرمزية ولم يعرّفْها.

وسأتتبعَّ معنى الرمز لغويا واصطلاحياً ؛ حتى نكتشف الجذور والأسس التي جاء الرمز منها وصار مذهباً فنيًّا في الأدب.

الرمز لغةً :

معنى أصل مادة (رمز) في اللغة العربية عامةً هو التحرك[٦] ، أما لغُويا فقد جمع ابن منظور معانيَ متعددة في تعريف) الرمز (أهمها قوله : " الرمز إشارة وإيماءٌ بالعينيْن والحاجبيْن والشفتيْن والفم"[٧]

ويشير الجاحظ إلى أنَّ الإشارة أو الرمز طريق من طرق الدلالة على المعنى ؛ فعندما تصحب الكلام تكون عوناً له في الإفصاح والبيان ، فالإشارة بالرأس واليد من تمام حُسْنِ البيان باللسان.[٨]

ولقد قال البحتري :

والشعرُ لمْحٌ تكفي إشارتهُ وليس بالهذْرِ طُوّلت خُطَبُهْ[٩]

إنَّ الدلالة غير المباشرة ليست بقيمة ووضوح الدلالة المباشرة.

الرمز اصطلاحًا :

سَعْيًا مني للعثور على زمن محدد اصطلاحيا لكُلمة (رمز) وقعتُ على رأي للدكتور درويش الجندي فيه يرى أن الرمز لم يعُرف اصطلاحًا إلا في العصر العباسي

---

[٦] انظر: عدنان الذهبي ، " في سيكولوجية الرمزية " ، مجلة علم النفس ، القاهرة ، مجلد 4 ، عدد 3 ، فبراير 1946م ، هامش ص٣٥٦

[٧] جمال الدين بن منظور ، لسان العرب ، مادة (رَمَزَ)

[٨] انظر: عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، ج١ ، ط٣، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٦٨م ، ص ٧٩:٧٦

[٩] البحتري ، ديوان البحتري ، ج١، ط1 ، مصر ، مطبعة هندية بالموسكي ، 1911م ، ص38

؛ فهو عصر التحول في الحياة العربية اجتماعيا وعقليا ، كما أنه عصر النهضة الأدبية والعلمية ، مما أفرز نشاطًا تعبيريا رمزيًّا .[١٠]

ويعدُّ ابن رشيق من أوائل الذين أشاروا إلى الرمز بلاغيًّا ونقديًا ؛ فقد اعتبر الرمز من أقسام الإشارة الأدبية وليس مرادفاً لها ، ويعرّف الرمز فيقول : "و أصل الرمز الكلام الخفيّ الذي لا يكاد يُفهم ، ثم استُعمِّل حتى صار الإشارة "[١١]

ويعرّفِّ الدكتور عبدالكريم اليافي الرمز بقوله : " أسلوب من أساليب التعبير لا يقابل المعنى ولا الحقيقة وجهًا لوجه "[١٢]، وهو تعريف يجمع بين تصورات الغربيين والمفاهيم العربية للرمز ؛ أما علي عشري زايد فيخصص تحديده لمفهوم الرمز في المجال الشعري أو الأدبي ؛ فالرمز الشعري عنده هو :" عبارة عن إشارة حسيَّة مجازية لشيء لا يقع تحت الحواس "[١٣] ؛ فمفهوم الرمز ينُظر إليه من زوايا اللفظ والمعنى عند العرب.

ومع ازدهار الرؤية الشعرية وتطورها أصبح الاتجاه الرمزي أ كثر بعُدًا ونضجًا ؛ فأدونيس يرى الرمز – قيمةً عليا – في قدرته ا الإيحائية بقوله : " فالرمز هو ما يتيح لنا أن نتأ مَّل شيئا آخر وراء النص ، فالرمز قبل كل شيء معنى خفي وإيحائي "[١٤] ؛ فالرمز عنده إذن كشفٌ لحقائق العالم و أحداثه الباطنية وهروب من كلِّ مألوف.

إنَّ شتى التعريفات السابقة تجتمع في ميلها إلى أنَّ الرمز غامضٌ ولا يتَّخذ من الوضوح منهجًا.

[١٠] درويش الجندي ، الرمزية في الأدب العربي ، د.ط ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٩٥٨م ، ص٤١
[١١] ابن رشيق القيرواني الأزدي ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ج١،ط٣، مصر، مطبعة السعادة ، ١٩٦٣م ، ص٣٠٥ ـ ٣٠٦
[١٢] عبدالكريم اليافي ، دراسات فنية في الأدب العربي ، مطبعة جامعة دمشق ،1963م ، ص225 -226
[١٣] علي عشري زايد ، بناء القصيدة العربية الحديثة ، ط٥ ، القاهرة ، مكتبة االأداب ،٢٠٠٨ م ،ص١٠٥
[١٤] علي أحمد سعيد ، أدونيس ، زمن الشعر ، ط٣ ، بيروت ، دار العودة ،١٩٨٣ م ،ص١٦٠

المبحث الثاني : مرجعيات الرمز في شعر محمود درويش

المرجعيات الرمزية التي سأتتبَّعها في شعر محمود درويش هي :

١-المرجعية الأسطورية :

يوظّف محمود درويش المعاني الدلالية للأسطورة في استدعائه للأحداث والشخصيات من خلال التعبير عن القضايا الإنسانية المعقدة والمركبة ؛ منها ما يرتبط بموضوعات الوجود والصراع ، ومنها ما يشير إلى هجرة الأساطير من بيئة أو حضارة إلى أخرى ، ودرويش يجعل من هذه الشخصيات الأسطورية التي يس تدعيها محورًا لقصائده :

فيا أناتُ

لتمكثي في العالم السفليّ أكثر
ربما هبطت إلاهات جديداتٌ علينا من
غيابك وامتثلنا للسراب
فلترجعي ولترجعي أرض الحقيقة
والكنايةِّ أرض كنعان البداية
أرض نهديك المشاع.
وأرض فخذيك المشاع ، لكي تعود المعجزاتُ إلى أريحا[١٥]

إنَّ شخصية (أنات) تمثل الأسطورة التي يستدعيها درويش ، وتمثل المعاني الرمزية العالية لقيم الجمال ، وينبع المعنى الأسطوري الدرامي في الشخصية المستدعاة من الصراع القائم ثنائية الدلالة.

وقد يتخذ محمود درويش قناعاً قديماً يقوده للماضي ، ويعمّق إدراكه بالحاضر كقوله :

[١٥] ديوان أرى ما أريد ، منشورات دار الجديد ، بيروت، ١٩٩٠م ، ص٨٩

لم ينجُ مني طائرٌ أو ساحرٌ أو امــرأة

العرش خاتمة المطاف ولا ضفاف

لقوتي ومشيئتي قدر . صنعت ألوهتي

بيدي وآلهة القطيع مزيفَّة[١٦]

ويعدُّ محمود درويش من الشعراء الذين تحضــر عنــدهم الرمــوز الدينيــة والآيات القرآنية ومفرداتها كثيرا ، مثل ديوانه : " كزهر اللوز ، أو أبعد .. " ؛ إذ يوظفها تماهيا مع الأيدولوجيات ، الأمر الذي منح قصائده عمقا فنيا ووطنيًــا وجماليا كقوله:

وقلتُ له : منذ كــم ســنةٍ نســتحثُّ

الحمامةَ : طيري إلى سدرة المنتهى،

تحت شُبَّاكِنا ، يا حمامة طيري وطيري[١٧]

إنَّ حضور" سدرة المنتهى " في لغة النص يحيلنا الآية الكريمة في سورة الــنجم ؛ فالرمز الذي يتخذه درويش قناعا له هنا يريد من ورائه حــثَّ وتحفيــز المغتــرب الفلسطيني في بلاد الغربة على العودة إلى موطنه فلسطين ؛ فاتخذ من الطيران ولغة الجنوح استدعاء رمزيا ذا مرجعية دينية.

وفي ديوانه الآخر " لماذا تركت الحصان وحيدًا "يستحضر البعد الرمزي للــنص القرآني مباشرة ، ويتناص معه حين قال :

ويضيئك القرآن :

(فبعث الله غرابًا يبحث فــي الأرضِ

كيف يواري سوأة أخيه ، قال :

يا ويلتي أ عجزت أن أ كون مثل هذا الغراب

---

[١٦] ديوان أرى ما أريد ، ص 66

[١٧] محمود درويش ديوان (كزهر اللوز ، أو أبعد) ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، رام الله ، ط١ ، ٢٠٠٥ م ، ص ١٣٢-١٣٣

ويضيئك القرآن ،
فابحث عن قيامتنا ، وحلِّقْ يا غراب.[١٨]

٣- المرجعية الشعبية :

نعني بالمرجعية الشعبية ورموزها التراثية توظيف الحكاية والسيرة ، والطقوس الشعبية كالأغاني وألعاب الأطفال[١٩]

ويستخدم محمود درويش في مشروعه الشعري أشكال مختلفة من التراث الشعبي كالحكايات الشعبية ، بهدف التعبير عن الهموم والاشتغالات الفكرية المعاصرة.

ويلُاحَظُ في دواوين محمود درويش الأخيرة أنَّ تجربة الحكاية عنده تصبح أ كثر شفافية وألقًا كقوله :

لم تأتِّ . قلتُ : ولن ...
إذًا سأعيد ترتيب المساء بما يليق
بخيبتي وغيابها:
أطفأت نار شموعها ،
أشعلتُ نور الكهرباء
شربتُ كأس نبيذها وكسرتهُ[٢٠]

إنَّ الحكاية هنا تقوم على التشويق ، وعلى بعُدٍ حكائي مشترك ينفتح على احتمالات كثيرة ، عن طريق الإيحاء والرمز ل المباشرة ، فدرويش يأخذ من الحكايات الشعبية رموزها التراثية المتوهجة ، ويخضعها لمعطيات واقعه المعاصر أو المُعاش.

---

[١٨] محمود درويش: ديوان (لماذا تركت الحصان وحيِّدًا) ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن وبيروت (١٩٩٥م) ، ص56-57

[١٩] عبدالسلام المساوي ، البنيات الدالّة في شعر أمل دنقل ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩٨م ، ص١٥٤

[٢٠] محمود درويش: ديوان (لماذا تركت الحصان وحيِّدًا) ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن وبيروت (١٩٩٥م) ، ص١٥٤

٤- المرجعية السريالية :

تظهر السريالية في شعر محمود درويش عبر تجليات مختلفة هي :

أ -الزمان والمكان :

يعتمد درويش على اللاشعور في لغته الشعرية التي تتميَّز بتجاوز المعايير وقيود المكان والزمان ؛ فالزمان والمكان عنده ضبابيُّ التوظيف ، والمكان والزمان عند السـريالبين يختلفان عن الصورة المكانية لدى الرومانسيين أو الواقعيين ، وينبعثـان مـن حالـت اللاوعي ويفتقدان الاتساع والاستمرارية.

يقول والاس فاولي : " اللغة ليست وسيلة للمعرفة بل هي نسيان لمعرفة العاديـة التـي نحصل عليها عن طريق ما يسميه رامبو بازدراء : التقدم العقلي ، تبقينـا فـي حـدود الأشكال الشائعة و أنظمة التفكير والعمل القاصرة الزائفة ؛ أما الطريقـة الأخـرى ... يمكن بواسطتها بلوغ ما يستعصـي عن التعبير وهذا أقصى ما يمكن بلوغه في تعريف فوضوية السريال "[٢١] ؛يقول محمود درويش :

هـو الآن يرحـلُ عنـاً
ويسكن يافا
ويعرفها حجراً حجرًا
ولا شـيء يشـبهه
والأغاني تقلِّده
تقلدُ موعده الأخضرا

ب- الغموض :

[٢١] فاولي والاس : عصر السريالية ، ترجمة خالدة سعيد ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨١م ، ص٥٣

ظلَّ محمود درويش غامضًا ومتوحّدًا مع فلسفته الوجودية الخاصة منذ بدايات مشـــروعه الشعري ، والوضوح عنده عدوٌّ مباشر للرؤية والكشف ؛ فيجب على الســـيرياليين عـــدم ارتكاب الوضوح وتجنبه ، والذهاب إلى الكتابة الغامضة جدًّا.[٢٢]

يقول محمود درويش :

ليس لي وجهٌ على هذا الزجـــاج
الشظايا جسدي
وخريفي نائمٌ في البحرِّ
والبحرُ زواجْ[٢٣]

جـــ- الرفض :

يستخدم الســـرياليون أفكار الرفض في مجالات الثـــورة وعـــدم الاتفـــاق مـــع الآراء الاجتماعية أو النفسية أو الاجتماعية ، وشعر درويش يحفل بملامـــح الـــرفض ومعانيـــه كقوله:

يا بحر البدايات ، إلى أين تعـــود
أيها البحر المحاصر
بين أسبانيا وصور
ها هي الأرض تدور
لماذا لا تعود الآن من حيث أتيت؟
آه من ينقذ هذا البحر
دقتَّ ساعةُ البحر
تراخى البحر ؟![٢٤]

إنَّ الاختلافات بين الرمز ا لدبي أ و الشعري وغيره مـــن الرمـــوز والمرجعيـــات المعرفية ا لخرى تجعلنا نعتمد في فهمنا على المتلقي وثقافته في تلقي المعارف التي يـــس تخدمها الشعراء ؛ فالرمز دليل على ثقافة الشاعر وعلى قدراته الفنية والتعبيرية.

---

[٢٢] انظر: أبو الحسن أمين مقدسي ، إدريس أميني ، بحث : ملامح السيريالية في شعر أدونيس ،مجلة الجمعية العلمية للغة العربية وآدابها ، العدد ٢٨، ، ٢٠١٣ م ،ص ١٢

[٢٣] محمود درويش : ديوان (هي أغنية .. هي أغنية) ، المجلد ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ص٢٣٧

[٢٤] محمود درويش (حصار لمدائح البحر) ، المجلد٢ ، دار العودة، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م ، ص١٥٨

المبحث الثالث : دلالات الرمز في شعر محمود درويش

١ –دلالات سياسية :

توجد في أشعار درويش التي تدعو لمقاومة المحتلِّ بعض الملامح الرمزية ، عبر طابع رمزيٍّ يرتبط بحركة الجماهير في الكفاح لتحقيق أهداف سياسية وتحررية تمنح العدالة والكرامة ا الإنسانية للدولة الفلسطينية ، وقد استخدم درويش الرموز المختلفة في الصورة الشعرية ، واستمدَّ من التراث إشاراته التاريخية حتى تصل دلالاته السياسية إلى شتى الجماهير الفلسطينية والعربية[٢٥]

يقول محمود درويش في قصيدة " أحمد الزعتر " :

لم تأتِّ أغنيتي لترسمَ أحمد المحروق بالأزرق
هو أ حمد الكونيُّ في هذا الصفيح الضيّقِّ
المتمزّقِّ الحالمْ
وهو الرصاص البرتقالي. البنفسجة الرصاصية
وهو اندلع ظهيرةٍ حاسم.
في يوم
حريةٌّ[٢٦]

إنَّ محمود درويش هنا ل يجعل اللون ا لحمر رمزًا للدم فقط ، وإنما يحوّل كلَّ كل نداءات الطبيعة رموزًا للتضحية والفداء ، ويجعلها رموزًا سياسية في وجه العدو المحتل. وهو ينجح في جعل القصيدة مبنًى ومعنًى مفهوما مغايرًا من حيث الغموض والترميز السياسي والأسطوري ؛ فالبعدان الوطني والقومي يشكِّلان عند درويش رموزًا دلالية وفكرية عميقة.

[٢٥] انظر: عزت ملا إبراهيمي ، محمد سالمي ، صديقة تاج الدين ، بحث(الرمز وتطوره الدلالي في الشعر الفلسطيني المقاوم) ، مجلة القسم العربي ، جامعة بنجاب ، لهور-باكستان ، العدد٢٤ ، ٢٠١٧ م ، ص١٤١

[٢٦] محمود درويش : ديوان(أعراس) ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٧م ، المجلد ١ ، ص ٦١٥

٢- دلالات أيدولوجية :

في تجربة محمود درويش الأخيرة يضيف لها مواجهةً حقيقيةً بين القصيدة والمتلقي ؛ فهو يترك نمط قصائده المنبرية الشهيرة " أحنُّ إلى خبز أمي" و "سّجل أنا عربي" إلى قصائد من نوع ونمطٍ وفكرٍ مختلف ، تقوم العلاقة فيها على التفاعل المركبَّ من التأثرُّ والتأثير بين القصيدة والقارئ أو المتلقي ؛ لذلك في قصائده الأخيرة نزوعٌ للتأمُّل والفلسفة ، يقول شكري عزيز الماضي : " الارتباط بقضايا الأنسان ، وقضايا العصر الجوهرية ، وتحويل الذاتي إلى جمعي ، والجمعي إلى كوني "[٢٧] ؛ فهو بهذه الفلسفة الشعرية و أيدولوجيا الشعر يتغير ويتبدَّل من شاعر مقاومة إلى شاعر حرية ؛ إذ يسعى لاستهداف النزعات التأملية في البشر.

إنَّ درويش في "جداريتَّه " – برغم بروز الذات – يعبر عن صدام مستمر بين الموت والأنسان ؛ مجسّدًا بذلك رؤيةً فنيَّةً كليَّةً تضيء تحوُّلت الذات والأنا ، وتنوّعُ في المواقف والعالم والوجود والوهم والأسطورة والواقع والتاريخ ؛ فالذات تتعدد وتتشطر والهوُية لا تكون واحدة ، وهذا كله يتواءم مع أيدلوجيا الشعر ومع دلالاتها.

يقول محمود درويش:

عن ظهر قلبٍ : لم يعدْ متطفِّلًا
ومدللًا. تكفيه حبة " أسبرين "لكي
يلين ويستكين. كأنهَّ جاري الغريب
ولستُ طوع هوائه ونسائه. فالقلبُ
يصدأ كالحديد، فلا يئنُّ ولايحنُّ
ولايجنُّ بأول المطر الإباحي الحنين،
ولا يرنُّ كعشبِّ آب من الجفاف.
كنَّ قلبي زاهدٌ أو زائدٌ [٢٨]

[٢٧] شكري عزيز الماضي : شعر محمود درويش/ أيدولوجيا السياسة و أيدولوجيا الشعر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، لبنان ، ط١ ، ٢٠١٣ م ، ص٥٤

[٢٨] محمود درويش ، ديوان (الجدارية) ، دار رياض الريس ، بيروت ، ط٢٠٠٠ ، ص78و79

وحين نغوص في الجانب السياسي والأيديولوجي نكتشف انفعالاتٍ متزايدةً في قصائد محمود درويش ، فالأيدولوجيا تفرض وجود صراعٍ منبثق من الطبيعة أوالسلطة باعتبارهما قوتان اجتماعيتان تسعيان لتحقيق مصالحها [٢٩]

٣ –دلالات اجتماعية :

يستخدم محمود درويش أسلوبًا رمزياً يقوم على الغموض والإيغال وينغلق على مكنونات وإيحاءات اللغة ، بالرغم من أنَّ الشعر الاجتماعي محتاجٌ إلى الوضوح والسهولة ، حتى يفهمه المتلقي ويستوعبه ، وحتى يحقق الغايات التي جاء من أجلها. لكنَّ درويش يستجيب أحيانا لنداءات المجتمع ولرغباته ، فيستعين بالشعر الاجتماعي في رمزيته بألفاظ وتعبيرات سهلة وقريبة من أفكار وحياة المجتمع[٣٠] ، يقول محمود درويش :

يقولُ الغريب كلامًا غريبًا ، ويحفر في الرض بئرًا
ليدفنَ فيها السماء ، يقول الغريب كلامًا غريبًا
ويصطادُ أطفالنَا والفراشْ .[٣١]

يرمز درويش في المقطع السابق بالغريب للصهيونية ، التي تزعم أنَّ أ رض فلسطين هي أرض أجدادهم ، والبئر رمزٌ لمحو وطمس الهوية العربية والوجود التاريخي للمسلمين في فلسطين.

إنَّ الظواهر الفنية والأسلوبية التي ضمَّنها محمود درويش في شعره الاجتماعي كانت ثمرة يانعة قرَّبت القارئ المثقف والعادي على حدٍّ سواء من قطفها والتلذذ بها، وذلك عبر استثمار طاقات وتقنيات أسلوبية وجمالية مهمة كالحذف والاستفهام ، حين قال :

---

[٢٩] انظر: فيصل دراج ، الواقع والمثال ، مساهمة في علاقات الأدب والسياسة ، دار الفكر الجديد ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٩م ، ص ٣٠٢

[٣٠] انظر: الباحث/ أيمن سلمان مسمح ، رسالة ماجستير " الاتجاه الاجتماعي في الشعر الفلسطيني بين انتفاضتين (١٩٨٧-٢٠٠٥م) " ، الجامعة الإسلامية – غزة ، ٢٠٠٧ م، ص١٦٩

[٣١] محمود درويش : ديوان(أحد عشر كوكبًا) ، دار توبقال ، ط ٢ ، 1993م ،ص٤٤-٤٥

كيف أ كتبُ فوق الســحابِّ وصــيةَّ أ هلــي ؟ وأ هلــي
يتركون الزمان كما يتركون معاطفَهم في البيوت ،
وأهلي كلما شيدَّوا قلعةً هدَّموها لكي يرفعوا فوقها
خيمةً للحنين إلى أول النخل.[٣٢]

أو كالأمر والنهي حين كتب محمود درويش نصائح ثوريــة عبــر صيغ جمالية إذ يقول:

تقول لي مثلًا : تزوَّجْ أيةَّ امرأةٍ من
الغرباءِّ ، أجمل من بناتِّ الحيّ . لكن ،
لا تصدِّق أيــةَّ امــرأ ةٍ ســواي . ولا تصــدّق
ذكرياتك دائماً . ل تحترق لتضــيء أ مُّكَ
تلك مهنتها الجميلة.[٣٣]

أو أسلوب النداء ؛ فالشعر الاجتماعي يفرض على الشعراء أن يستزيدوا ويكثروا من أساليب النداء ؛ فتناول قضايا المجتمع وتدوين ما يجري فيه يحتاج إغراءً أو تعجُّبًا أو نحو ذلك ؛ حتى يتناسب مع معالجة النواحي والقضــايا الاجتماعيــة ، يقول محمود درويش :

يا أبي ، هل تعبْتَ
أرى عَرَقاً في عيونك
يا ابني تعبــتُ .. أتحملنــي ؟
مثلما كنت تحملني يا أبي.[٣٤]

إنَّ الشاعر هنا يجري حوارًا بينه وبين أبيه ؛ فيستعين بالنداء (يا) ؛ لتحقيق هــذا الغرض ، والشاعر يقصد كل الآباء في الوطن الفلسطيني المحتل.

---

[٣٢] المرجع نفسه ، ص٩
[٣٣] ديوان (لماذا تركتَ الحصانَ وحيدًا) ، ص٨٠
[٣٤] المرجع نفسه ، ص٤٢

٤ –دلالات نفسيةً :

يلجأ محمود درويش إلى دلالات نفسية تمنح لغته الشعرية و أساليبه الفنية جماليات كثيرة كالتكرار ، والذي يعدُّ دلالةً نفسيَّةً قيِّمّة تفيد المتلقي والناقد في تحليل مستويات الخطاب عند درويش ، وقياس التحولات في قصائده عبر كشف الأبعاد النفسية التي تمنح القارئ مفتاحَ الفكرة التي يريدها الشاعر ؛ والتكرار يمثلّ أعلى صور الانبعاث الوجداني عند السامع. وفي تكرار اللوازم عند درويش تشكيلٌ زمنيٌّ ومكانيٌّ بديع ؛ كقوله :

سجِّلْ !
أنا عربيٌّ
ورقم بطاقتي خمسون ألف
وأطفالي ثمانية
وتاسعُهم .. سيأتي بعد صيف !
فهل تغضب ؟
سجِّلّ !
أنا عربي[٣٥]

إن الأسباب والبواعث لحدوث التكرار في تجربة محمود درويش الشعرية هي مهمته العويصة في كشف البواطن والخفاء التي تعتمل في وجدانه من صراعات وقلق ، والتكرار يعرّفه فرويد نفسيًّا بأنه يتمُّ دون وعي فيؤثِّرّ بذلك على سلوك الشاعر.[٣٦] والتكرار عند درويش يشمل كل مكونات الجملة من اسم وفعل وحرف ؛ كقوله :

ولكن .. لا رصيف
ولا جدار
لا أرض تحتي كي أموت كما أشاء
ولا سماء حولي
لأثقبها وأدخل في خيام الأنبياء[٣٧]

[٣٥] محمود درويش ، الديوان ، المجلد الأول ، ص١٢١-١٢٢
[٣٦] انظر: شعبان علي حسين السيسي ، علم النفس ، المكتب الجامعي الحديث ، د.ط ، ٢٠٠٢ ص71
[٣٧] محمود درويش : ديوان (مديح الظل العالي) ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط ٢، ١٩٨٤م ، ص٩١

الخاتمة

إنَّ هذا البحث يعدُّ قراءة نقدية وتأويلية عبر الكشف عن الرمز في شعر محمود درويش ، وقد اخترتُ الرمز لأنه يلامس جزءًا مهمًّا من تجربة محمود درويش الشعرية ومن جوانب حياته ، ويمكن إجمال ما توصَّلتُ إليه فيما يلي :

١- يعدُّ الرمز من أهمِّ أدوات محمود درويش ؛ فاحتياجُهُ واسع وضروري لصياغة بناءات فنية وجمالية للواقع والبيئة المحيطة به ؛ دفعه لاستعمال الرموز التي منحت شعره عمقًا في التعبير وقوةً في التأثير ووضوحًا في الفكرة.

٢- يغلب على شعر درويش المنهج والرؤية السياسية ؛ فقضية الصراع العربي الصهيوني شغلت تفكيره الشعري ؛ مما جعل رموزه الفنية ومرجعياتها تتحرك في مستويات تعبيرية مختلفة.

٣ -ينجح الشاعر في استخدام الرمز التراثي وتشكيلاته المتعددة ، كما ينجح في استخدام الرموز الخاصة دلاليا ؛ فيفيد من اختلاف الاستخدامات في التعبير عن قضايا أمته المعاصرة ، أو قضاياه الذاتية.

٤ - تنزع صياغات محمود درويش إلى استخدام قيم الرموز ودلالته أسلوبيا عبر تقنيات المفارقة والمعادل الموضوعي والتكرار وغيرها ؛ لإثارة انتباه المتلقي وجذبهِ.

٥- ينقذ محمود درويش قصائده من خلال توظيف الرمز والقناع من الوقوع في نمط الغنائية ، بل يكسبها انفعالات ذاتية معبِّرة عن الواقع والبيئة في صور درامية.

٦- تمثِّل الحرية ملمحًا مهمًّا في شخصية محمود درويش ؛ فهي جزءٌ أساسٌ من تكوينه الفكري والسياسي والسلوكي ، وهي تمثِّل صراعاً دائماً لتكسير بعض العوائق والمسلمَّات ؛ مما يجعله يلجأ للرمز وثرائه التعبيري.

ثبت المصادر والمراجع

*** المصادر**:

١- محمود درويش : ديوان (حبيبتي تنهض من نومها) ، ط١، منشورات العربي ، القدس ، ١٩٧٠م

٢- محمود درويش : ديوان(أعراس) ، المجلد١ ،دار العودة ، بيروت ، ١٩٧٧م.

٣- محمود درويش : ديوان (مديح الظل العالي) ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط ٢ ، ١٩٨٤م

٤- محمود درويش: ديوان أرى ما أريد ، منشورات دار الجديد ، بيروت ، ١٩٩٠م

٥- حمود درويش: ديوان(أحد عشر كوكباً) ، دار توبقال ، ط ٢ ، ١٩٩٣م.

٦- محمود درويش : ديوان (هي أ غنية .. هي أ غنية) ، المجلد ١ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٩٣م

٧- محمود درويش : ديوان (حصار لمدائح البحر) ، المجلد ٢ ، دار العودة ، بيروت ، ط١ ، ١٩٩٤م
٨- محمود درويش: ديوان (لماذا تركت الحصان وحيدًا) ، رياض الريس للكتب والنشر ، لندن وبيروت،١٩٩٥م
٩- محمود درويش ، ديوان (الجدارية) ، دار رياض الريس ، بيروت ، ط ٢٠٠٠م.
١٠-محمود درويش: ديوان (كزهر اللوز ، أو أبعد) ، دار الشروق للنشر والتوزيع ، رام الله ، ط١ ، ٢٠٠٥ م

*** المراجع** :

١- ابن رشيق القيرواني الأزدي ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد ، ج١،ط٣ ، مصر، مطبعة السعادة ، ١٩٦٣م
٢- البحتري ، ديوان البحتري ، ج١ ، ط١ ، مصر ، مطبعة هندية بالموسكي ، ١٩١١م
٣- جمال الدين ابن منظور ، لسان العرب ، ط٣ ، بيروت ، دار الفكر ودار صادر ، ١٩٩٤م
٤- درويش الجندي ، الرمزية في الأدب العربي ، د.ط ، مكتبة نهضة مصر بالفجالة ، ١٩٥٨م
٥- شعبان علي حسين السيسي ، علم النفس ، المكتب الجامعي الحديث ، د.ط ، ٢٠٠٢ م
٦- شكري عزيز الماضي : شعر محمود درويش/ أيدولوجيا السياسة و أيدولوجيا الشعر ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، لبنان ، ط١ ، ٢٠١٣م
٧- - عبدالكريم اليافي ، دراسات فنية في الأدب العربي ، مطبعة جامعة دمشق ،١٩٦٣م
٨- عبدالسلام المساوي ، ال بنيات الدالّة في شعر أمل دنقل ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٩٨م
٩- عز الدين إسماعيل ، الشعر العربي المعاصر (قضاياه ، وظواهره الفنية والمعنوية) ، ط٣ ، بيروت ، دار العودة ودار الثقافة، ١٩٧٥م
١٠-علي أحمد سعيد ، أدونيس ، زمن الشعر ، ط٣، بيروت ، دار العودة ،١٩٨٣م
١١- علي عشري زايد ، بناء القصيدة العربية الحديثة ، ط٥ ، القاهرة ، مكتبة الآداب ،٢٠٠٨م
١٢-عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان والتبيين تحقيق عبدالسلام محمد هارون ، ج١ ، ط٣ ، القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٦٨م

١٣- فاولي والاس : عصر السريالية ، ترجمة خالدة سعيد ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨١م
١٤- فيصل دراج ، الواقع والمثال ، مساهمة في علاقات الأدب والسياسة ، دار الفكر الجديد ، بيروت ، ط١ ، ١٩٨٩م
١٥- : محمد فتوح أحمد ، الرمز والرمزية في الشعر المعاصر ، ط٣ ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٤م
١٦-نسيب النشاوي ، مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر ، د.ط ، دمشق ، ١٩٨٠م

*** الرسائل الجامعية والمجلات العلمية :**

١- الحسن أمين مقدسي ، إدريس أميني ، بحث : ملامح السريالية في شعر أدونيس ، مجلة الجمعية العلمية للغة العربية وآدابها ، العدد ٢٨ ، ٢٠١٣ م

٢ - الباحث/ أيمن سليمان مسمح ، رسالة ماجستير " الاتجاه الاجتماعي في الشعر الفلسطيني بين انتفاضتين (١٩٨٧-٢٠٠٥) "، الجامعة الإسلامية – غزة ، ٢٠٠٧ م

٣- عدنان الذهبي ، " في سيكولوجية الرمزية " ، مجلة علم النفس ، القاهرة ، مجلد ٤ ، عدد ٣ ، فبراير ١٩٤٦م

٤- عزت ملا إبراهيمي ، محمد سالمي ، صديقة تاج الدين ، بحث(الرمز وتطوره الدلالي في الشعر الفلسطيني المقاوم) ، مجلة القسم العربي ، جامعة بنجاب ، لاهور- باكستان ، العدد٢٤ ، ٢٠١٧ م